(٧)

المطولة فى قراءة الدكتور طه ترتفع على ماهو شخصى أو واقعى أو مادى الى جو آخر قوامه عواطف الحنين والشوق ، وقد ظن كثير من القراء أن الشوق لايكون إلا مرة واحدة حين يذكر الشاعر أحباءه الذين مضوا ، وغفلوا عن تعبير السحابة الخفيفة والأتان والبقرة ، كل هذا العالم يتحرك ويندفع يسوقه الشوق ، ولكنه شوق سمح يخلو من العنف والقهر ، ويجمل بشىء غير قليل من المروءة .

ومن خلال هذا التيار المتدفق من الحرية والإسماح والجنين يحدثنا الدكتور طه عن الوحدة الباطنية فى المطولة ، ولكننا نقرأ القصيدة أجزاء متفرقة ولانقرؤها مجموعة أكبر من هذه الأجزاء .

وأوضح الأشياء فى هذه الإشارات أن الدكتور طه يغرينا بأن نلتمس نفسا مثقفة تعطى أكثر مما تأخذ ، وتبحث عن الخصب فى داخلها ، فالقريحة الخصبة والخيال القوى فى المطولة يعتمدان على هذه السماحة الحرة الوديعة . وعلى هذا النحو جعل لبيد من حياة السحابة والأتان والبقرة والناقة مثلا إنسانية رفيعة بعيدة عن الأثرة والحفيظة والاندفاع المحموم .

ولم تكن العظة أو الحكمة أداة تصور هذه المثل ، كانت الأداة هى القصص الساذج اليسير الذى يبدأ بال حاب الخفيف الذى يطيع أيسر الريح ، ثم الأتان الوحشية التى تحيا حياتها الفطرية غير مقهورة ولاضيقة بنفسها ، وقد ظهر الحمل على الأتان ، وخلصت لفحلها بعد منافسة وخصومة عنيفة فيها مطاردة ومضاربة ، ولكنه على كل حال قد استخلصها لنفسه ، فهو يجشمها الهول ، ويعلو بها الآكام والهضاب ، وقد ظهرت فيه آثار العض ، وامتلأت نفسه ريبة بما تظهر له من عصيان وتمنع . ولكن هذا كله لايجعل الخصام كربا ، ولا عسرا خاليا من المرح ، والمرح قرين السذاجة التى يشير اليها الدكتور طه . ولأمر ما استبعد الشاعر الظلام والبرد والعكوف على النفس والقعود والتلبث ، وآثر الحركة والنشاط الذى يخلو من التراجع الى أعماق النفس المظلمة وتقليب الأمور على وجوهها . لنقل إن الحركة كانت استبعادا للسكون والصمت والعزلة . وكانت اشتغالا بالحاضر عن الماضى . وربما كانت استخلاصا للصديق فى خصومة مرحة .